آفاق الحضارة الاسلامية، اكاديمية العلوم الانسانية و الدراسات الثقافية
السنة الرابعة عشرة، العدد الاول، ربيع و صيف ١٤٣٢هـ.ق، صص ٦١ ـ ٨٤

دراسة أسلوبية فى سورة «ص»

نصرالله شاملى *

سميه حسنعليان **

المستخلص

لا شكّ أنّ للتعبير القرآنى أسراراً وجماليات ولمسات وصوراً فنية تدلّ على أنّ هذا القرآن كلام فنى مقصود وُضع وضعاً دقيقاً ونُسج نسجاً محكماً فريداً.

استهدف هذا البحث دراسة سورة «ص» مستخدماً المنهج الأسلوبى الذى يتمحور حول معطيات علم اللغة العام. متناولاً المستوى الصوتى والدلالى والتركيبى ومستوى الصورة فى السورة هذه.

ظهر من خلال هذه الدراسة أنّ هناك توازناً مقصوداً فى إيقاع السورة كما أنّ التكرار هو من العناصر الهامّة فى زيادة هذا الإيقاع الجميل للسورة، بالإضافة إلى تناسق هذه الأصوات، وأنّ ألفاظ السورة تميزت بالدقة فى اختيار وقوّة التأثير فى المتلقى وأنّ التناسق الفنى قد برز بين الصور المختلفة ـ البلاغية منها والواقعية ـ بصورة واضحة.

الكلمات الرئيسة: الأسلوبية، سورة (ص)، المستوى الصوتى، المستوى الدلالى، المستوى التركيبى، مستوى الصورة.

١. المقدمة

الحمدلله ربّ العالمين الذى علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان، والصّلاة والسّلام على نبيّه الكريم وآله الطاهرين.

أما بعد فالدراسات الأسلوبية من الدراسات التى تحتل مكانة عالية فى دراسات علم اللغة

* أستاذ مشارک فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان dr_Nasrollashameli@yahoo.com

** دكتورة فى اللغة العربية وآدابها متخرجة من جامعة أصفهان SHassanalian@yahoo.com

تاريخ الوصول: ٨٩/١٠/٤، تاريخ القبول: ٨٩/١٢/٢١

Archive of SID

www.SID.ir

حالياً وتعد من المناهج التی اعتمدت علی الدراسات اللغوية أساساً فی تحليل النصوص، وقد أثار ذلک عدة تساؤلات حول حقيقة الأسلوبية هل هی علم مستقل أم منهج؟ وهذا أمر يصعب تحديده، لأنّ نقاد العرب اختلفوا فيه، فمنهم من اعتبرها علماً عاماً کعلم اللغة، أو علم الکلام باعتبارها منضوية فی علم اللسانيات أو فرع من فروع اللغة. (مصلوح، ١٩٨٤م: ص٢١٧) بينما رفض بعضهم وصف الأسلوبية بالعلم. (أبوديب، ١٩٨٤م: ص٢١٩)

والحديث عن علمية الأسلوبية أمر لم يحسم عند الدارسين لسبب واضح وهو أنّ الأسلوبية نشأت مرتبطة بالدراسات اللغوية، ثمّ استفاد منها النقاد فی دراسة النصّ وتحليله، وبناء علی ذلک فإنّ الأسلوبية تجمع بين المنهج العلمی فی دراسة اللغة، والمنهج النقدی فی دراسة النصّ الأدبی أی أنها تجمع بين العلم والمنهج.

تتمثل مشکلة الدراسات النقدية الحديثة فی تناولها الظاهری للنصوص، واعتمادها الظواهر الشکلية فی معالجتها، فالعملية النقدية للنص الأدبی لا تتوقف عند مرحلة شرح النص وتوضيح معناه العام والواقع أن تناولاً النص بهذه الطريقة يهبط بمستوی النصّ إلی درجة يفقد فيها جمالياته المميزة له، ووسائله التعبيرية الخاصة. ومن هنا تبرز أهمية علم الأسلوب الحديث (Stylistics) فی تجاوزه دور النقد السطحی فی التعامل مع النصوص وتحليلها، وقد تميزت الدراسات الأسلوبية الحديثة بتناولها الناضج للنصوص، وقدرتها علی الکشف عن مواطن الجمال فيها، مستفيدة من علم اللغة ودراساته العلمية التی تغذی الدراسات النقدية بحيث تتجاوز الجوانب الشکلية للنص والنقد الساذج الذی يقوم علی الشرح والتفسير، وهکذا فإنّ الدراسة الأسلوبية الحديثة تفيدنا کثيراً فی فهم النصّ الأدبی و«استکشاف ما فيه من جوانب جمالية، وذلک بما تتيح للدارس من قدرة علی التعامل مع الاستخدامات اللغوية، ودلالاتها فی العمل الأدبی، وبهذا التفاعل مع الخواص الأسلوبية المميزة المکتشفة بطريقة علمية سليمة، تتضح مميزات النصّ وخواصه الفنية» (عودة، ١٩٩٤م: ص١٠٠).

ومن هنا يأتی اختيارنا للمنهج الأسلوبی وسيلة نستطيع من خلالها النفاذ إلی عمق النص القرآنی بما يحمله هذا المنهج من إمکانيات دراسية تحليلية عميقة، نستطيع من خلالها أن نرصد جماليات النص.

أما أهداف البحث فهی: دراسة المستويات المختلفة اللغوية فی سورة من سور القرآن الکريم کنص وکشف العلاقات اللغوية المختلفة بينها،

أما بالنسبة إلی الدراسات السابقة لهذا الموضوع فهناک دراسات أسلوبية و لغوية مختلفة فی بعض سور القرآن الکريم، منها:

Archive of SID

www.SID.ir

ـ رسالة جامعية بعنوان: «*السجع القرآنی دراسة أسلوبية*» بحث مقدم لنيل درجة الماجستير لهدى عطية عبد الغفار، بجامعة عين شمس لعام ٢٠٠١م.

ـ رسالة جامعية بعنوان: «*تحولات بنی الخطاب القرآنی فی مشاهد القيامة والقص دراسة أسلوبية*» وهو بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه بجامعة بغداد لطالبة بلقيس كولی محمد الخفاجی، عام ٢٠٠٥م.

ـ رسالة جامعية بعنوان: «*جملة الخاتمة فی الآيات الكونية والإنسانية دراسة أسلوبية*» بجامعة النجاح الوطنية للباحثة نور هانی محمد سمحان، عام ٢٠٠٩م.

ـ رسالة جامعية بعنوان: «*دراسة أسلوبية فی سورة الكهف*»، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير بجامعة النجاح الوطنية للباحث مروان محمد سعيد عبد الرحمن، عام ٢٠٠٦م.

ـ رسالة جامعية بعنوان: «*ظواهر أسلوبية وفنية فی سورة النحل*» للطالب أسامة عبد المالک إبراهيم عثمان، للنيل إلى درجة الماجستير بجامعة النجاح الوطنية بعام ٢٠٠١م.

كما أننا حصلنا على دراسات أسلوبية فی الشعر العربی لمختلف عصورها أيضاً، منها:

ـ رسالة بعنوان: «*لغة الشعر عند الصعاليک قبل الإسلام دراسة لغوية أسلوبية*» للباحث وائل عبد الأمير خليل الحربی لنيل درجة الماجستير بجامعة بابل، عام ٢٠٠٣م.

ـ رسالة بعنوان: «*شعر بشر بن أبی خازم دراسة أسلوبية*» للطالب سامی حماد الهمص، بجامعة الأزهر بغزة، عام ٢٠٠٧م.

ـ رسالة بعنوان: «*شعر أبی ذؤيب الهذلی دراسة بلاغية أسلوبية*» للطالب محمد بن سعيد بن إبراهيم اللويمی للنيل إلى درجة الماجستير بجامعه الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بعام ١٤٢٣هـ.ق

ولكن بالنسبة إلى سورة «ص» الكريمة فلا نكاد نحصل على دراسة لغوية أو أسلوبية وافية للموضوع فيها فنحن هنا اهتممنا بدراستها، وبعد التعرف على الأسلوب والأسلوبية وأهم اتجاهاتها ندرس هذه السورة فی مستويات مختلفة الصوتية، التركيبية، الدلالية ومستوى الصورة وفی نهاية البحث خاتمة فيها أهم نتائج البحث.

٢. الأسلوبية ودلالتها

«علم الأسلوب هو الذی يطلق عليه فی الإنجليزية (Stylistics) وفی الفرنسية (La Stylistique)، والباحث فيه هو (Stylistician)، وكلمة (Style) تعنی طريقة الكلام، وهی مأخوذة من الكلمة اللاتينية (Stylas) بمعنی عود من الصلب كان يستخدم فی الكتابة، ثم أخذت تطلق على طريقة

Archive of SID

www.SID.ir

التعبير عند الكاتب.» (عبد المطلب، ١٩٩٤م: ص١٨٥) وهكذا يمكننا القول إنّ الأسلوب هو طريقة الكاتب فى تشكيل المادة اللغوية، وعلى هذا الاعتبار يمكننا أن نعرّف الأسلوبية على أنها منهج نقدى حديث، يتناول النصوص الأدبية بالدراسة، على أساس تحليل الظواهر اللغوية والأسلوبية تكشف الظواهر الجمالية للنصوص، وتقيّم أسلوب مبدعها، محددةً المميزات الأسلوبية التى يتميز بها عن غيره من المبدعين. وهكذا تبدو أهمّ سمات المنهج الأسلوبى هى: «استكشاف العلاقات اللغوية القائمة فى النص، والظواهر المميزة التى تشكل سمات خاصة فيه، ثمّ محاولة التعرّف على العلاقات القائمة بينها وبين شخصية الكاتب، الذى يشكل مادته اللغوية وفق أحاسيسه ومشاعره التى تجعله يلحّ على أساليب معينة، ويستخدم صيغاً لغوية تشكل فى مجملها ظواهر أسلوبية لها دلالتها فى النصّ الأدبى.» (عودة، ١٩٩٤م: ص٩٩)

إذاً فالأسلوبية «تتجاوز مجرّد نقل المعنى إلى عمق الاستعمال اللغوى المتمثل فى وضع الكلمات فى أنساق معينة، وكيفية انتظامها، وانتظام الجمل والمفردات، ورسم الصور، وانتظام ذلک كله مع المعنى، فالكلمة هى مادة التشكيل الفنى لدى الأديب.» (المصدر نفسه، ص١١٣) ومن هنا تأتى أهمية توظيف اللغة فى فهم النصّ الأدبى فى الدراسات الأسلوبية، فهى الأداة التى يستخدمها المبدع فى تشكيل مادته الفنية تشكيلاً يعكس أفكار الشاعر ومشاعره، فيضفى عليها بذلک ملامح جديدة وأبعاداً مختلفة. وعلى هذا الأساس فسوف تكون أداتنا الأولى فى دراستنا الأسلوبية هذه هى اللغة بمستوياتها المختلفة؛ الصوتية، والتركيبية، والصورة، لننفذ من خلالها إلى عمق النص القرآنى، آخذين بعين الاعتبار مدى تميزه فى صياغة تلک اللغة وتشكيلها وجماليات هذا التشكيل.

تهتمّ الأسلوبية بالجانب العاطفى للظاهرة اللغوية، إذ تسعى الأسلوبية إلى تتبع الكثافة الشعورية التى تميّز النص الأدبى، وهكذا فإنّ الأسلوبية تدرس «وقائع التعبير فى اللغة المنظمة من ناحية محتواها العاطفى، أى التعبير عن وقائع الإحساس عبر اللغة، وفعل اللغة فى الإحساس.» (عبد المطلب، ١٩٩٤م: ص١٨٧)

ولعلم الأسلوب اتجاهات مختلفة تستخدم فيها المستويات المتعددة للتحليل اللغوى منها: المستوى الصوتى، والمستوى الدلالى، والمستوى التركيبى، ومستوى الصورة. ولكلّ من هذه المستويات صفات تميزه عن الآخر وتساعد الناقد فى كشف جماليات النصّ وتعين المتلقى فى فهم أسرار النصّ.

يستخدم علم الأسلوب مستويات التحليل اللغوية، ألا وهى: المستوى الصوتى، المستوى الدلالى، المستوى التركيبى، مستوى الصورة.

Archive of SID

www.SID.ir

٣. تطبیق المستویات الأسلوبیة علی سورة «ص»

وفی هذا المجال درس البحث تطبیق المستویات الأسلوبیة التی ذکرت علی سورة «ص» مبتدئاً بالمستوی الصوتی، عابراً بالمستوی الدلالی والترکیبی ومنهیاً بمستوی الصورة.

١.٣ المستوی الصوتی فی سورة «ص»

لا یخامرنا شک أنّ الدراسة الصوتیة تقع فی صمیم دراسة النصوص الأدبیة، لأنّ التحلیل الأسلوبی لهذه النصوص یساعد کثیراً فی فهم طبیعتها، وفی الکشف عن الجوانب الجمالیة فیها، بالإضافة إلی ما فیه من کشف الانفعالات النفسیة والعواطف التی تحکم مبدعها، والتی تدفعه إلی اختیار أصوات وإیقاعات بعینها و «لیس یخفی أنّ مادّة الصوت هی مظهر الانفعال النفسی، وأنّ هذا الانفعال بطبیعته إنّما هو سبب فی تنویع الصوت، بما یخرجه فیه مدّاً أو غنّة أو لیناً أو شدة». (الرافعی، ١٩٩٧م: ص ١٦٩) ولیس یخفی ارتباط مستویات اللغة المختلفة ببعضها، وتعتبر دراسة المستوی الصوتی الخطوة الأولی لدراسة المستویات الأخری، فعلی سبیل المثال، لا یمکن دراسة الصرف دراسة صحیحة إلا بالاعتماد علی الوصف الصوتی. (هلال، ١٩٩٦م: ص ١٥)

ولا ینکر عاقل أثر الموسیقی والنغم فی شدّ المتلقی وجعله أکثر انتباهاً وأشدّ إصغاءً، بل إنّ موسیقی الشعر هی أجمل ما فیه من عناصر وللشعر نواح عدّة للجمال، أسرعها إلی نفوسنا ما فیه من جرس الألفاظ، وانسجام فی توالی المقاطع وتردد بعضها بعد قدر معین منها، وکلّ هذا هو ما نسمیه بموسیقی الشعر. (أنیس، ١٩٧٢م: ص١٣)

أمّا بالنسبة إلی القرآن الکریم فلن نجد نصوصاً توافرت فیها الاتفاقات ـ بین جمیع مستویات اللغة ـ کنصوص القرآن الکریم، وسوره وآیاته، حیث ترکت طریقة القرآن فی التعبیر تأثیرها علی المتلقین وأثارت انتباههم، «حتی لم یکن لمن یسمعه بدّ من الاسترسال إلیه والتوفر علی الإصغاء ... فإنه إنما یسمع ضرباً خالصاً من الموسیقی اللغویة فی انسجامه، واطراد نسقه واتزانه علی أجزاء النفس، مقطعاً مقطعاً، ونبرة نبرة کأنها توقّعه توقیعاً ولا تتلوه تلاوة.» (الرافعی، ١٩٩٧م: ص١٦٧) ویبدو الإیقاع الموسیقی واضحاً فی القرآن الکریم، ولکنّ لهذا الإیقاع طریقته الخاصة التی تختلف عن الشعر المقیّد بالأوزان والقوافی، فهو خاص بالقرآن وحده، إذ هو «إیقاع فی نطاق التوازن، لا إیقاع فی نطاق الوزن، فالوزن فی العربیة للشعر، والتوازن فی الإیقاع للنثر، والذی فی القرآن إیقاع متوازن لا موزون». (حسان، ١٩٩٣م: ص ٢٦٩) ویؤدی هذا الإیقاع دوراً فاعلاً فی تکثیف المعنی، وزیادة طاقاته التعبیریة، من خلال انسجامه مع أجواء النصوص ومعانیها، حیث یعبّر القرآن عن المعنی بالألفاظ، ویختار من هذه الألفاظ ما کانت أصواتها متناغمة مع

Archive of SID

www.SID.ir

معانيها، ومجسّدة لها، وهكذا يكون «النسق القرآنى قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً. فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة؛ فنال بذلک حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة. وأخذ فى الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية، والفواصل المتقاربة فى الوزن.» (قطب، ١٩٨٣م: ص ١٠٢)

وقد برز الإيقاع فى أكثر آيات القرآن الكريم، ولا يحتاج الباحث إلى عناء كبير ليثبت أن اتزان الإيقاع فى الآيات والفواصل شىء يقصد إليه القرآن قصداً، دون أن يكون ذلک بالطبع على حساب المعنى المطروح.

وقد كثرت الشواهد على ذلک بحيث يصعب حصرها فى القرآن الكريم، ومن هذه الشواهد فى السورة، أننا نرى كيف تختل الموسيقى الكامنة فى تركيب بضع الآيات أو الجمل لو قمنا بإحداث تغيير فى كلماتها، استبدالاً، أو تقديماً وتأخيراً، فلو أردنا تقديم كلمة (الذكر) فى قوله تعالى: «أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا» [سورة ص ٣٨: ٨] وقرأناها: (أءنزل الذكر عليه من بيننا)، لاختفى هذا الإيقاع المتوازن الجميل.

ومثل هذا الإجراء الاستبدالى يعدّ منهجاً علمياً يفيد منه الباحث فى إدراک أسرار التركيب وجمالياته وغاياته، ويسمح ـ فى الدراسات الأدبية ـ بفهم الاختيار الأسلوبى للمبدع، والأنماط اللغوية التى كان بوسع المؤلف أن يختار منها فى عملية الإنتاج. لكى نبحث هذا، يمكن أن نقوم بإجراء استبدالى، إذ ننطلق من وحدة لغوية معينة فى النص، لنضع بدائلها المحتملة فى النظام اللغوى. (فضل، ١٩٩٢م: ص ٢٣٣)

ولا يكفى النظر إلى آيات القرآن مكتوبة حتى نتذوق أصواتها، بل لا بدّ من تلاوتها، حتى نقف على روعة بنائها الصوتى والموسيقى. ولا تقتصر أهمية السماع على القرآن الكريم فحسب، فإنّ الشعر ـ على سبيل المثال ـ يفقد من جماله الشىء الكثير إذا لم يتمّ إنشاده بنغمة موسيقية تناسبه، وبشكل عام «إنّ اللغة المحكية هى التى تمثّل فقط انعكاسات الأصوات.» (طحان، ١٩٨١م: ص٦٤) وفى الكلام المسموع ما ليس فى المكتوب من إظهار للتعبيرات المصاحبة للكلام ولهذا كانت دراسة الكلام المنطوق المسموع مقدمة لا بدّ منها لدراسة الأنظمة (القواعد) اللغوية أو بعبارة أخرى لدراسة اللغة نفسها. (حسان، ١٩٧٩م: ص٤٧)

١.١.٣ البناء الصوتى للكلمات

يمكن التعرف على البناء الصوتى للكلمات، من خلال تبيّن نوعية المقاطع الصوتية المكونة لها، ويعدّ المقطع مرحلة وسيطة ما بين الصوت المفرد، والكلمة المركبة من عدة أصوات فهو «مزيج

Archive of SID

www.SID.ir

من صامت وحركة، يتفق مع طريقة اللغة فی تأليف بنيتها، ويعتمد على الإيقـاع التنفسـی، فكـلّ ضغطة من الحجاب الحاجز على هواء الرئتين يمكن أن تنتج إيقاعاً يعبّر عنه مقطع مؤلف فی أقلّ الأحوال من صامت وحركة (ص+ ح). (شاهين، ١٩٨٠م: ص٣٨)

وللمقطع أهمية كبيرة فی الكلام؛ لأنّ المتكلمين لا يستطيعون نطق أصوات الفونيمات كاملـة، أو هم لا يفعلون ذلک إن استطاعوا، وإنما ينطقون الأصوات فی شكل تجمعـات هـی المقـاطع (عمر، ١٩٧٦م: ص٢٣٨). وإذا رمزنا للصامت بـالرمز (ص)، وللصـائت أو الحركـة بـالرمز (ح)، فيمكن عرض الأشكال الرئيسية للمقاطع العربية كما يأتی:

١. المقطع القصير (ص ح)، ويتألف من صامت وحركة قصيرة.

٢. المقطع المتوسط المفتوح (ص ح ح)، ويتألف من صامت وحركة طويلة.

٣. المقطع المتوسط المغلق (ص ح ص)، ويتألف من صامت ثمّ حركة قصيرة يتلوها صامت.

٤. المقطع الطويل المغلق (ص ح ح ص)، ويتألف من صامت، حركة طويلة يتلوها صامت.

٥. المقطع الطويل المزدوج الإغلاق (ص ح ص ص)، ويتألف من صامت ثم حركة ثم حركة قصيرة يتلوها صامتان. (شاهين، ١٩٨٠م: ص٣٨ ـ ٤٠)

وقد عملنا على تحليل المقاطع الصوتية التی تتكون منها كلمات السورة، واخترنا نماذج مـن الآيات، من مواقع متفرقة، وبدأنا كلّ آية برقمها فی السورة ثم قمنا ببيان نوعية المقاطع الصـوتية وعددها فی كلّ آية:

١.[1] صاد والـ قُر ءا ن ذِذ ذِک ر

ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ح ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح.

٢. بـَ لِل لَ ذيـ نَ کـَ فـَ روا فی عز زَ تن و ش قا قن

ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح/ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص.

٣.کم أهـ لَکـ نا من قبـ لـِ هم من قر نن فـ نا دوا و لا ت حی ن م نا صن

ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح ص

بلغ عدد المقاطع القصيرة فی هذه الآيات (١٧)، والمتوسطة (٢٨)، وزاد فيها عدد المقاطع المتوسطة على القصيرة وقد كان لهذه الزيادة أثرها فی بيان الزمن الطويل قبلهم وهلاک الأقوام قبلهم و ...

Archive of SID

www.SID.ir

نذكر نموذجاً آخراً:

٧٧. قا ل فاخـ رج منـ ها فـ إنـ نـ ک رجيم

ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح ص.

٧٨. و إنـ ن ع ليـ ک لعـ نـ تی إ لی يو مد دين

ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ح ص.

٧٩. قا ل رب ب فـ أنـ ظر نی إ لی يو م يبـ عـ ثو ن

ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ح/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح.

٨٠. قا ل فـ إنـ نـ ک م ن ال منـ ظ ريـ ن

ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح.

فی هذه الآيات الكريمة عدد المقاطع القصيرة (٢٥) وعـدد المقـاطع المتوسـطة ـ المغلقـة والمفتوحة معاً ـ (٣٠) والنسبة بينهما تقلل بالنسبة إلى الآيات المذكورة سابقاً، لعلّ كثرة المقـاطع القصيرة فی هذه الآيات تقصد زيادة حدّة الانتباه، وإثارة الأسـماع وأيضـاً الإشـارة إلـى طـرد الشيطان من الجنّة.

يبدو أنّ لكلّ آية نظاماً مقطعياً خاصاً، فلا يكون هذا النظام مطرداً فی كلّ الآيات، إلّا أنه يأتی فی معظمها متفقاً مع معانيها، ومنسجماً مع أجوائها.

١.٢.٣ الموسيقی النابعة من تردد الأصوات

يسهم التكرار فی السورة ـ سواء أكان تكراراً للحرف أو الكلمة ـ فی تشكيل الأنغام الحسنة، ويزيـد من الإيقاع الجميل والمتميز فی آياتها، ويكسبها انسجاماً موسيقياً، و«الانسجام هو أن يكون الكـلام لخلوه من الانعقاد متحدراً كتحدّر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة، والقرآن كله كذلک.» (السيوطی، بلاتا: ص ٢٦٠)

هذا بالإضافة إلى المعانی التی يؤديها الإيقاع من خلال تناسقه مع جوّ الآيات ودلالتها، وقـد اعتبر الرافعی ذلک التناسب الطبيعی بين الأصوات فی القرآن الكـريم لونـاً مـن إعجـازه، سـمّاه إعجاز النظم الموسيقی فی القرآن وذلک «لترتيـب حروفـه باعتبـار مـن أصـواتها ومخارجهـا،

Archive of SID

www.SID.ir

ومناسبة بعض ذلک لبعضه مناسبة طبیعیة فـی الهمـس والجهـر، والشـدة والرخـاوة، والتفخـیم والترقیق، والتفشی والتکریر وغیر ذلک.» (الرافعی، ١٩٩٧م: ص ١٦٩)

وعلی الرغم من وضوح ظاهرة الإیقاع الموسیقی فی القرآن فإنّها لم تحظ بالعنایـة المعمقـة مـن القدماء، فـ «حدیثهم عنها لم یتجاوز ذلک الإیقاع الظاهری؛ ولم یرتق إلی إدراک التعدّد فی الأسالیب الموسیقیة، وتناسق ذلک کله مع الجوّ الذی تطلق فیه هذه الموسیقی.» (قطب، ١٩٨٣م: ص٨٧)

قد عملنا علی تتبع تکرار بعض الأصوات والحروف فی السورة، محاولاً الکشف عن العلاقـة التی تربط بین هذه الأصوات وبین الجوّ الذی وردت فیه، وقـد تناولنـا مجموعـة متشـابهة مـن الأصوات، وتحدثنا عن میزاتها وخصائصها، وعن المعانی التی جسّدتها، وعن انسجامها مع أجواء الآیات وسیاقاتها، کما یأتی:

قد منحت أصوات المدّ الکثیر من الوضوح والإبانة للکلام الذی یأمر الله نبیه أن یقوله ویؤکد علی أنه منذر لا یسأل الناس أجراً وهذه أظهر الأصوات وضوحاً فی اللغة العربیة.کقولـه تعـالی: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [سورة ص٣٨: ٦٥] وقُلْ مَا أَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ مِـنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَکَلِّفِینَ» [سورة ص٣٨: ٨٦]

وتأتی أصوات المدّ فی مواقف المفاصلة بین المؤمنین والکافرین، مثل قوله تعالی: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجَّارِ» [سـورة ص٣٨: ٢٨] فجاء صوت الکسرة الطویلة فی: (الذین، المفسدین، المتقین) وصوت الفتحـة الطویلـة فـی: (آمَنُوا، الصَّالِحَات، کَالْفُجَّار) وصوت الضمة الطویلة فی: (عَمِلُوا).

والجدیر بالذکر أنّ أصوات المدّ تمنح فرصة التشکی والتأوه للإنسـان الحـزین، الـذی یتـألم لحاله،کحال الذین وقعوا فی عذاب الله تعالی ورأوا أن لا مفرّ لهم منه ولا ملجـأ لهـم حـاولوا أن یبرئوا أنفسهم وقالوا: «قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِی النَّارِ» [سـورة ص٣٨: ٦١] وقد تؤدی أصوات الحرکات غرض المبالغة والتعظیم، من خلال ما تتمیز به من مدّ، وأکثر ما یبرز غرض التعظیم فی الآیات التی یکون ضمیر المتکلم فیها عائداً علی الله سبحانه حیث یکون دور أصوات الحرکات هو الإسهام فی تجسید عظمة الخالق، وإظهار قدرته التی لا تحدّ کما فی الآیة: «یَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاکَ خَلِیفَةً فِی الأَرْضِ» [سورة ص ٣٨: ٢٦] وزاد فی الآیة من درجة التعظیم مجیء ضمیر الجماعة للمتکلم الذی یعود علی الله، حیث یزداد الکلام عظمة بسبب صـوت نـون الجماعة المقترنة بصوت الفتحة الطویلة فی کلمة (إنّا). ومثل هذا الإحساس بعظمة المـتکلم نـراه فی قوله تعالی: [سورة ص ٣٨: ٣٦ و ٣٧]، فقد منحته أصوات المدّ هیبة ووقاراً، وزادتـه عظمـة وجلالاً، وبالإمکان تأمّل ذلک فی الکلمات التی اشتملت علی حرکة الفتحة الطویلـة: (سـخرنا،

Archive of SID

www.SID.ir

رخاء، أصاب، الشيطين، بناء، غواص، ءاخرين، الأصفاد)، بالإضافة إلى التكلم بصيغة الجمع فى (سخرنا) الدالة على التعظيم. ويبرز جوّ التعظيم فى قوله تعالى: «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ» [سورة ص ٣٨: ٤٦] من خلال أصوات حركات الفتحة الطويلة الخمسة.

يؤدى صوت المدّ أحياناً دوراً يجسّد استبعاد حصول شيء ما، وعدم إمكانية حدوثه أو يظهر التعجب من حصوله، وذلک ما نجده فى استفهام الكافرين فى قولهم: «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ»[سورة ص ٣٨: ٥]، فهم يتعجبون من جعل الآلهة إلهاً واحداً والعبارة الأخيرة فى الآية أيضاً يشير إلى هذا التعجب. وهذا المعنب قد جسّدته أصوات المدّ وكأنّ فى كلّ مدّ مزيداً من التعجب. وقد يظهر جوّ السكينة والهدوء بأصوات المدّ كما تجلى هذا الجوّ فى هذه الآيات: «جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ» [سورة ص٣٨: ٥٠ ـ ٥٢] وهذه بيان عن أهل الجنة وعن النعيم الذى يقيمون فيه فقد جاء التعبير فى غاية الهدوء والسكينة.

وهناک صوت النون الذى ذكرها القدماء مع الميم واللام والراء فى الأصوات الذلقية. وهذا الصوت يأتى ذو الوضوح السمعى المميز فى الآيات ليزيدها وضوحاً ورنيناً، فعلى مستوى الإيقاع لا شكّ أنّه يمّل رنّة، تحدث قوة إسماع، حاملة ترديداً زمنياً طويلاً (كشک، ١٩٨٣م: ص١٣) بالإضافة إلى صوت الغنّة الموسيقى فى هذا الحرف وليست الغنة إلا إطالة صوت النون مع تردد موسيقى محبب فيها. ولنتأمل كيف تجلت هذه الخصائص الموسيقية لصوت النون فى قوله تعالى: «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» [سورة ص٣٨: ٤٤] وقوله سبحانه: «وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ» [سورة ص٣٨: ٤٧] فقد نشأ عن تردد هذا الصوت نوع من الموسيقى ترتاح إليه الأذن وتميل إليه. ونلحظ وضوحاً صوتياً شديداً ورنيناً مدوياً فى أكثر الآيات التى يشيع فيها صوت النون، وذلک يضاعف من قوّة إسماع الكلمات، ويجعل للآية إيقاعاً حاسماً جلياً يتواءم مع جلاء معناها، كما فى قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنظَرِينَ» [سورة ص٣٨: ٧٩ ـ ٨٠]، ونجد لصوت الغنّة إيقاعاً حانياً يتواءم مع الحنّو من لدن الله الممنوح لإبليس الذى أراد منه الإنظار إلى يوم القيامة مع أنه أبى أن يسجد على آدم(ع)، مخالفاً أمر الله تعالى.

ويبرز صوت النون فى مقام التهديد، وفى سياق الوعيد، فيزيد من حدّتهما ويضاعف من وقعهما على النفوس ويساهم مع أصوات أخرى فى التعبير عن الغضب المجلجل، كما فى قوله تعالى: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنکَ وَمِمَّن تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» [سورة ص ٣٨: ٨٥]، فقد كان لصوت النون رنين ووقع يصمّان الآذان من شدتهما، ويزلزلان النفوس، حيث يقسم الخالق أنه يملأ

www.SID.ir

جهنمه من إبلیس ومن اتبعه. وکذلک الأمر فی الآیة الأخیرة فی السورة: «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِینٍ» [سورة ص ۳۸: ۸۸]

وفی الصوت تجدر بنا الإشارة إلی الأصوات المفخمة؛ یعرف التفخیم بأنّه «ارتفاع مؤخر اللسان إلی الأعلی قلیلاً فی اتجاه الطبق اللین، وتحرکه إلی الخلف قلیلاً فی اتجاه الحائط الخلفی للحلق» (عمر، ۱۹۷٦م: ص۲۸۳)، وتتمثل المجموعة الصوتیة المفخمة فی نوعین، الأول: الأصوات المطبقة وتشمل أصوات: (الضاد، الصاد، الطاء، الظاء)، وهی أصوات کاملة التفخیم، فیها مع استعلائها إطباق. والثانی: الأصوات ذات التفخیم الجزئی، وهی أصوات لا إطباق فیها مع استعلائها، وتشمل أصوات: (الخاء، الغین، القاف).

تسهم الأصوات المفخمة بإیقاعاتها القویة فی تجسید ضخامة الحدث فی یوم القیامة فی قوله تعالی: «وَمَا یَنظُرُ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا صَیْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ» [سورة ص ۳۸: ۱۵] وکان لصوت (الصاد) و(القاف) إیقاع علی هیبة ذاک الیوم.

ولنتأمل هذه الآیة الکریمة: «وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاکِعًا وَأَنَابَ» [سورة ص۳۸: ۲٤] کان لصوت (الخاء) المفخم ومعه الراء إیقاع دال علی هیبة هذا الخرّ وعظمته، ولنتخیل هذا الصوت الناتج عن ذلک الخرّ وکیف یعبّر عنه ویناسبه الإیقاع المفخم فی الراء والخاء المستعلیة.

وحین ترافق أصوات التفخیم الأحداث الضخمة فهی تصور بإیقاعاتها الضخمة ضخامتها وعظمتها حتی لکأنها تنقل صوت هذه الأصوات کما تنقل الألفاظ معانیها کما فی الآیة الکریمة: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَیْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِکَ ظَنُّ الَّذِینَ کَفَرُوا فَوَیْلٌ لِّلَّذِینَ کَفَرُوا مِنَ النَّارِ» [سورة ص ۳۸: ۲۷] فقد عبر سبحانه عن بطلان ظنّ الکافرین عن خلق الله السماء والأرض باطلاً ولما کان هذا الظنّ الباطل بهذه الضخامة فقد رافقت التعبیر عنه أصوات التفخیم والاستعلاء فی (خَلَقْنَا، الأَرْضَ، بَاطِلاً، ظنّ).

۲.۳ المستوی الدلالی

تبدو علاقة واضحة بین جانبی الدلالة والصوت، فهما یتکاملان معاً ویتطابقان فی السورة، فبعض الدلالات کانت تستدعی نوعاً معیناً من الأصوات، کما أنّ بعض الأصوات کانت تعبّر عن نوع معیّن من الدلالات، «علی أنّ هناک نوعین من النسیج فی العمل الأدبی: أحدهما هو النسیج الصوتی والآخر هو النسیج الدلالی. وهما لا یحتاجان عادة إلی التطابق سوی فی الأدب.» (فضل، ۱۹۹۲م: ص۹۳) وتعتبر الکلمات أو الألفاظ من الأهمیة بمکان فی دراسة النصوص، لأنّها تمثّل الوحدات الصغری التی یتشکل منها النص، وإن دراستها ودراسة دلالتها وخصائص

www.SID.ir

استعمالها تقودنا إلی الخروج بتصور واضح عن البنية الكلية، أی عن الوحدة الكبری التی هی (النص) أو السورة، فلا يستغنی إذن عن دراسة الألفاظ فی محاولة فهم النصّ، «وليس ثمة ما يثير الدهشة أو الغرابة فی هذه المكانة التی تنفرد بها الكلمات، فهی أصغر نواقل المعنی أو أصغر الوحدات ذات المعنی فی الكلام المتصل.» (أولمان، بلاتا: ص١٩) وللألفاظ فی القرآن الكريم مكانة خاصة، إذ هی تنفرد عن غيرها بدقة متناهية وهی تنسجم تمام الانسجام مع السياق الذی ترد فيه، بحيث لو حاولتَ أن تَستبدلَ بكلمة ما كلمةً أخری، لاختلّ المعنی، لذا فإنّ ألفاظ القرآن الكريم تقع «فی ضمن الأسلوب البيانی الرائع، ونعتقد مؤمنين أنّ كلّ لفظ فی القرآن له معنی قائم بذاته وفيه إشعاع نورانی يتضافر مع جملته» (أبوزهرة، ١٩٧٠م: ص١٠٤).

ولا شک أنّ للسياق الذی ترد الألفاظ فيه دور هام فی البحث فی مستوی الدلالة، إذ لا يصح الاعتماد علی مجرد النظرة الفردية فی كلّ كلمة دون معرفة مواقعها فی السورة؛ لأنّ اللفظة فی حدّ ذاتها لا قيمة لها، وإنما هی تستمدّ قيمتها من السياق الذی ترد فيه. وهذا ما تنبه إليه علماؤنا القدامَی، يقول عبد القاهر: «وها تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعانی جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها؟» (الجرجانی، ١٩٨٨م: ص٣٦).

يحار المتأمل فی معانی هذه السورة من هذه الدقة التی تميز ألفاظها، بحيث تؤدی المعنی بطريقة فريدة، وكأنّ هذه الألفاظ ما خلقت إلّا لهذه المعانی، ومن سمات ألفاظ سورة(ص) ومميزاتها هی: الدقة فی الاختيار، إذ تعتبر سمة بارزة وعامة نتذوقها فی كلّ ألفاظ القرآن الكريم، فإنک تجد أنّ اللفظ قد جاء فی مكانه المناسب، وعبّر عن المعنی المطلوب تعبيراً دقيقاً ومن مظاهر هذه الميزة فی السورة أيضاً هی أنّه لا يمكن استبدال لفظ بغيره دون أن يختلّ المعنَی، لأنک لو حاولت أن تستبدل بلفظ القرآن لفظاً آخر من عندک لن تجده يعبّر عن المعنی بالدقة نفسها التی يعبّر عنها لفظ القرآن ولن تعثر فيه علی تلک الإحاطة بالمعنی من جميع الجهات وكافّة الجوانب، ولنأخذ لفظ (سخرياً) فی قوله تعالی: «أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ» [سورة ص ٣٨: ٦٣]

لا شکّ أن (السخری) أقوی من (السخر) و الخصوصية أقوی من الخصوص و نذكر هنا أن النسب يحدث فی الاسم تغييرات:

١. زيادة ياء النسبة فی آخره وهذه الياء المشددة حرف بمنزلة تاء التأنيث لا موضع لها من الإعراب.

٢. كسر ما قبلها.

٣. جعل الياء منتهی الاسم.

Archive of SID

www.SID.ir

وإنما تطرق التغيير فى اللفظ لتغيير المعنى، ألا ترى أنک إذا نسبت الى علـم اسـتحال نکـرة بحيث تدخله أداة التعريف كالتثنية والجمع وصار صفة بمنزلة المشتق بعد الجود ويرفع الاسم بعده على الفاعلية أما مظهرا أو مضمراً تقول مررت برجل تميمى أبوه وآخر هاشمى جده، وإذا نسبت الى المصدر زدته قوة كما فى قولک سخريا. (الدرويش، ۱۹۹۹م: ج ۸/ ص ۳۸۰)

ومن عجيب نظم القرآن ودقة اختياره، أنّه يختار من صيغ الجمع المختلفـة، تلـک الصـيغة التى تنسجم مع السياق وتتفّق مع المعنى. ومثال ذلک فى السورة كلمة (العباد) التى وردت فى الآية: «وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ» [سـورة ص ۳۸: ٤٥]، ونلحظ أنّ القرآن استخدم صيغة الجمع (العباد) فى هذا المقام ولم يستخدم صيغة (العبيد). وقد ورد لفظ (العباد) فى القرآن الكريم نحواً من سبع وتسعين مرّة (الأصـفهانى،۱۹۹۷م: مـادة «ع ب د»)، وهو فى معظمها صريح فى دلالته على الطاعة وإخلاص العبودية لله، أمّا لفظ (العبيـد) فقد جاء فى القرآن خمس مرّات فقط، فى سياق نفى صفة الظلم عن الله حين يحكم بإدخـال الكافرين إلى النار، وذلک فى الآيات کـ: «مَـا يُبَـدَّلُ الْقَـوْلُ لَـدَىَّ وَمَـا أَنَـا بِظَـلاَّمٍ لِّلْعَبِيـدِ» [سورة ق۵۰: ۲۹]

ومن الفروق بين الجمعين، ما ذكره ابن جنّى أنّ: «أكثر اللغة أن تستعمل (العبيد) للناس، و(العباد) لله» (ابن جنى، ۱۹٦۹م: ص۸۹)، أى نقول: عبيد الناس، وعباد الله، والتفت باحثون إلى العلاقة بـين التركيب الصوتى لكلا الجمعين، وبين معنى كلّ منهما، من حيث اختيـار اللفـظ المنسـجم بأصـواته للمعنى المرموز إليه، فجاءت لأجله كلمة (عباد) فى القرآن وصفاً للمسلمين العابدين لله، بينما جاءت (العبيد) وصفاً للكافرين. وبرّروا ذلک أنّ الانتقال فى (عباد) من الكسرة إلى الفتحـة ثـمّ الاسـتطالة بالألف ـ الموحية بالعزّة والرفعة والمنتصبة القامة ـ يشير إلى هذه العزّة والرفعة التى نلحظها فى حياة العباد المؤمنين المطيعين لله، بينما الانتقال فى (عبيد) من الفتحة إلى الكسرة فالاستطالة بالياء ـ التـى جاءت وسط الكلمة منبطحة ملقاة بذلة ـ يوحى بانكسار الـنفس، واسـتغراقها فـى الـذّلّ، ومهانتهـا باستعباد الناس لها. (الخالدى، ۱۹۹۲م: ص۵۸)

وفى قوله تعالى (يسبحن) [سورة ص۳۸: ۱۸] عدول عن الاسم الى الفعل، والنكتة فيه الدلالة على التجدد والحدوث شيئا بعد شىء وحالا بعد حال وكأن السامع حاضر تلـک الحـال يسـمع تسبيحها. (الدرويش، ۱۹۹۹م: ج ۸/ ص ۳٤۳)

ولاستعمال التضاد فى السورة دلالات مختلفة منها أنّ التضاد يفيد معنى العموم فى الآية «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِکَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار» [سورة ص۳۸: ۲۷] بين (السماء) و (الأرض) أى هو ربّ كلّ شىء وخالقه.

Archive of SID

www.SID.ir

قد يدلّ التضاد على الدوام والاستمرارية وعدم الانقطاع كما فی التضاد بين (العشیّ) و(الإشراق) فی قوله تعالى: «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الإِشْرَاقِ» [سورة ص٣٨: ١٨] أی يذكرن الله باستمرار وتواصل فی الصباح والمساء.

وقد يرد التضاد فيحدث مقارنة بين نقيضين، ليزيد من الترغيب فی أحدهما، والتنفير من الآخر، وذلک من خلال استحضارهما معاً، ولنتأمّل التضاد بين (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) و(الْمُفْسِدِينَ) وبين (الْمُتَّقِينَ) و(الْفُجَّار) فی قوله تعالى: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» [سورة ص ٣٨: ٢٨]

٣.٣ المستوى التركيبی

وهنا نهتمّ بأهم الظواهر الأسلوبية فی سورة (ص) ومنها:

١.٣.٣ التكرار

يوجد نوعان من التكرار فی القرآن الكريم، هما تكرار القصص والأخبار وتكرار الألفاظ والعبارات. ونجد النوع الأول فی هذه السورة، إذ توجد قصص مختلفة فی هذه السورة عن أنبياء وقد وردت بعض هذه القصص فی السور الأخرى كقصة سليمان(ع) الذی وردت فی سورة النمل أيضاً. أو قصة خلق آدم(ع) وامتناع إبليس فی سجدته له إذ وردت فی سورة البقرة أيضاً. ومن أسرار تكرار القصص: أنّ إعادة القصة الواحدة بعبارات أخرى، وبأسلوب مغاير، يُظهر بلاغة القرآن وتصرفه فی فنون القول فـ «إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدی معنى واحداً من الأمر الصعب الذی تظهر به الفصاحة وتبين به البلاغة» (الباقلانی، بلاتا: ص٦١). وحين يكرر القرآن فی قصصه، ثمّ يبقی ـ بعد ذلک ـ محافظاً على بلاغته فإنّ فی ذلک تحدّياً كبيراً للمعاندين أن يأتوا بمثل ما جاء به، فـ «عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التی يتصرف فيها» (المصدر نفسه، ص٣٦).

وأما النوع الثانی من التكرار ـ المتمثل فی تكرار الألفاظ والعبارات ـ فنجده فی سورة (ص) والمقصود به: إعادة الكلمة نفسها، أو العبارة ذاتها، فی السياق نفسه، أو فی سياق آخر من السورة وبمعنى آخر فهو «دلالة اللفظ على المعنى مرددا، كقولک لمن تستدعيه: أسرع، أسرع فإنّ المعنى مردد واللفظ واحد» (ابن الأثير، ١٩٩٨م: ج٢/ ص١١٠).

من نماذج التكرار قوله تعالى: «مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ» [سورة ص٣٨: ٥١] حيث جرى تكرار الجار والمجرور (فيها) الذی يعود الضمير فيه على الجنات للإشارة إلى

Archive of SID

www.SID.ir

مکانة هذه الجنات وأهمیتها وللتنبیه علی أنّ المتقین خالدین فی هذه الجنات وفیها تعدّ لهم کـلّ الفواکه وأدوات الراحة والرفاه.

وعندما نتتبع الألفاظ والعبارات التی تکررت فی مواضع متفرقة من السورة، نلاحظ أنّ بعض الألفاظ فی السورة تکررت وکان لتکرارها أثر فی رسم المعالم البارزة للسورة وتحدید مضامینها، فقد أشاعت ألفاظ مثل: (الوهاب، رحمة، هب، وهبنا، عطاؤنا) أجواء حانیة وجعلتها تتضح بفیض من أحساسات الودّ والبرکة والفضل من جانب الله تعالی.

وفی السورة نلاحظ أنّ الله تعالی یکرّر صفة (الأواب) لأنبیائه داود، سلیمان وأیـوب (علـیهم السلام) [سورة ص: ۳۸، ۱۷ و ۳۰ و ٤٤] ویسجل علیهم بالمدح لیکون ذلـک أدعـی لوجـوب الاقتداء بهم.

وکان لتکرار کلمات بعینها علاقة وثیقة بالتأکید علی بعض العقائد الإسلامیة المهمـة التـی لا إیمان للشخص من دون الاعتقاد بها ومن هذه العقائد توحید الله؛ کتکـرار کلمـة (الـربّ، العبـد) بصیغهما المختلفة.

أما (الربّ) فهی إحدی صفات الخالق، ولا یقال الربّ مطلقاً إلا لله تعالی المتکفـل بمصـلحة الموجودات، وهی تشمل أکثر من معنی، فقولنا «ربّ» یتضمّن معنی الملک والتدبیر وجاءت بهذا المعنی فی الآیة: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ» [سورة ص۳۸: ٦٦] ومعناها أنّ الله وحده هو المسیطر علی هذا الکون والمالک له فی مقابل عبودیة الآخرین له وتبیین ذلک مقصد أساسی من مقاصد السورة. وأکثر ما تتجلی تلک الربوبیة عنـد الـدعاء الـذی یعـدّ أبـرز المواقف التی تظهر فیها عبودیة الإنسان وحاجته أمام خالقه لیصلح لـه أحوالـه وشـأنه، وحتـی إبلیس عندما أراد أن یدعو ربه لینظره إلی یوم القیامة قال: «قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُـونَ» [سورة ص۳۸: ۷۹] وتکرر (الرب) علی ألسنة الأنبیاء فی مقامات الدعاء بما یتناسب مع معناه فی قوله عن سلیمان(ع): «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَـدٍ مِّـنْ بَعْـدِي إِنَّـكَ أَنـتَ الْوَهَّابُ» [سورة ص۳۸: ۳۵] ونبیه أیوب (ع): [سورة ص۳۸: ٤١]

ولرفعة مقام العبودیة، نجد أنّ وصف الأنبیاء بالعبودیة لله یأتی فی سیاق المدح لهم والدلالـة علی رضا الله عنهم کما جاءت فی هذه الآیات: «وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْـمَ الْعَبْـدُ إِنَّـهُ أَوَّابٌ» [سورة ص۳۸: ۳۰] و«إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» [سورة ص ۳۸: ٤٤] و«وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ» [سورة ص ۳۸: ٤٥]

تکررت فی هذه السورة عبارة (واذکر) عندما یخاطب الله الرسول (ص) ویطالبه بـأن یـذکر الأنبیاء السابقین کداود وسلیمان وأیوب و ...

Archive of SID

www.SID.ir

وهناک تکرار فی عبارة: «وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ» [سورة ص٣٨: ٢٥ و ٤٠ و ٤٩] وفيها نوع من المدح للأنبياء والمتقين.

وفی السورة تکرار لکلمة (الذکر) [سورة ص ٣٨: ١و ٨ و ٣٢ و ٤٩].

٢.٣.٣ الاستفهام

ينفی أسلوب الاستفهام الرّتابة عن النصّ، لأنه يعدّ شکلاً من أشکال التنوّع فی الأساليب، والانتقال من الخبر إلى الإنشاء کما أنه يدفع المخاطبين إلى التفکّر والتأمّل. ورد الاستفهام فی السورة وقد خرجت عن الاستفهام الحقيقی إلى تحقيق أغراض بلاغية أخرى کالإنکار والتوبيخ و ... کالآية هذه: «أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ» [سورة ص٣٨: ٦٣] الهمزة للاستفهام الإنکاری وهمزة الوصل سقطت استغناء عنها. و«أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» [سورة ص٣٨: ٢٨] أم هنا عاطفة منقطعة وفيها معنى الاستفهام الإنکاری. (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) عطف علی ما تقدم وفی الإنکار إبطال لما يدعونه من أن الجزاء غير وارد لأنه لو صح کلامهم لاستوت عند اللّه حال من أصلح أو أفسد ومن اتقی أو فجر.

وفی قوله تعالی: «أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ» [سورة ص٣٨: ٧٥] الهمزة للاستفهام الإنکاری التوبيخی وهمزة الوصل سقطت استغناء عنها واستکبرت فعل وفاعل وأم عاطفة متصلة ولا يمنع من ذلک اختلاف الفعلين.

وقوله تعالی: «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» [سورة ص٣٨: ٥] فی الآية استفهام جری علی لسان الکفار ويدل علی التعجب، تعجبهم من جعل الرسول الآلهة إلهاً واحدا ويحسّ القارىء بنوع من السخرية فی طريقة تعجب هؤلاء الکفار، فجاء استفهامه حاملاً لمعانی الاستغراب وظنّ الاستحالة.

٤.٣ مستوى الصورة

انحصرت الصورة لدى الباحثين القدماء فی التصوير البلاغی، من مجاز واستعارة وتشبيه و ...، فقد قصروها علی هذه الألوان، وأغفلوا أموراً غاية فی الأهمية، کالتصوير بالحقيقة، حيث يمکن أن يخلو التعبير من المجاز ويکون فی الوقت ذاته مشرقاً بالصور الفنية الرائعة. وقد تجاوز النقد الحديث هذا التضييق فی مفهوم الصورة الفنية، «فلم تعد الصورة البلاغية هی وحدها المقصود بالمصطلح، بل قد تخلو الصورة من المجاز أصلاً فتکون العبارات حقيقة الاستعمال مع ذلک تشکل صورة دالّة علی خيال خصب» (البطل، ١٩٨٣م: ص٢٥).

Archive of SID

www.SID.ir

ولا تخفی المزایا العدیدة لطریقة التصویر؛ فلو خوطب الناس بطریقة تجریدیة خالیة من التصویر لم یلامس ذلک سوی أذهانهم، لأنّه بدون التصویر تصبح التعابیر جامدة، خالیة من الجمال، وضعیفة التأثیر. ولکنه من خلال الصورة، یواجه القرآن النفس من جمیع أقطارها فلا تصیر الدعوة إلی الإیمان مجرّد جدل منطقی مؤسّس علی مقدّمات عقلیة وبراهین فلسفیة، بل تصبح کشفاً روحیاً لا یحتاج معه الإنسان إلّا أن یخلص النظر إلی أعماقه. (أبوعلی، ۱۹۸٤م: ص۱۱۸)

ویشتمل القرآن الکریم علی التصویر بجمیع أشکاله، ففیه تصویر باللون، وتصویر بالحرکة، وتصویر بالتخییل ... وکثیراً ما یشترک الوصف والحوار وجرس الکلمات ونغم العبارات وموسیقی السیاق فی إبراز صورة من الصور. (قطب، ۱۹۸۳م: ص۳۷)

۱.٤.۳ التشبیه

والتشبیه فی القرآن وإن کان عنصراً بیانیاً یکسب النصّ روعة واستقامة وتقریب فهم، إلّا أنّه یعود عنصراً ضروریاً لأداء المعنی القرآنی متکاملاً من جمیع الوجوه. (الصغیر، ۱۹۸۱م: ص۳۷)

یتناول التشبیه فی الآیة: «وَاهْدِنَا إِلَی سَوَاءِ الصِّرَاطِ» [سورة ص۳۸: ۲۲]، فشبّه الاعتقاد الحقّ فی کونه موصلاً إلی الهدی بالصراط المستقیم فی إیصاله المکان المقصود باطمئنان بال.

ولنتأمل ما یوحی به ذلک التشبیه من دلالات علی صحّة السیر والوصل إلی الغایة واختصار الطریق، فالخطّ المستقیم هو أقصر طریق بین نقطتین. ولأنّ القوم کانوا یعیشون فی الصحراء التی لا یعرف السفر من خلالها إلا الخبیر فإنّ هذه الصورة تلامس أعماقهم فهم یعرفون أن معنی أن یسیروا فی غیر الطریق الصحیحة هو التیه والضیاع.

وفی قوله «إِنَّ ذَلِکَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ» [سورة ص۳۸: ٦٤] تشبیه تقاولهم وما یدور بینهم من حوار ویتبادلونه من سؤال وجواب بما یجری بین المتخاصمین من نحو ذلک لأن قول الرؤساء لتابعیهم لا مرحبا بهم وقول التابعین بل أنتم لا مرحبا بکم لا یعدو الخصومة التی یتراشقها المتخاصمون. (الدرویش، ۱۹۹۹م: ج ۸/ ص۳۷۹)

۲.٤.۳ الاستعارة

تبدو الاستعارة واحدة من أهمّ ألوان التعبیر المجازی، وینظر إلیها بالمفهوم الجدید علی أنها «اعتداء وجرح لشفرة اللغة، أی انحراف عن الاستخدام العادی» (فضل،۱۹۹۲م: ص۲۳۸) وهذا الانحراف یشدّ المتلقی وینفی الرتابة عن النص ویمده بوسائل طریفة ومدهشة فی التعبیر.

Archive of SID

www.SID.ir

فی السورة استعارة فی قوله «ذو الأوتاد » فی الآیة: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ» [سورة ص۳۸: ۱۲] استعارة تصریحیة أی ذو الملک الثابت الموطّد وأصله من ثبات البیت المطنب بأوتاده. (الدرویش، ۱۹۹۹م: ج ۸/ ص ۳۲۷).

۳.٤.۳ المجاز

یحصل المجاز حین لا یتمّ استعمال الألفاظ علی أسلوب الحقیقة فإذا «عدل باللفظ عمّا یوحیه أصل اللغة وصف بأنّه مجاز علی معنی أنّهم جازوا به موضعه الأصلی أو جاز هو مکانه الذی فیه أولا» (الجرجانی، بلاتا: ص۳٤۲).

فی قوله تعالی: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» [سورة ص۳۸: ۷۵] تغلیب للیدین علی غیرهما من الجوارح التی تباشر بها الأعمال لأن ذا الیدین یباشر أکثر أعماله بیدیه حتی قیل فی عمل القلب هو مما عملت یداک علی المجاز. (الدرویش، ۱۹۹۹م: ج ۸/ ص ۳۸٤) واختلف العلماء والمفسرون أیضا فی المراد بالخیر بقوله: «فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي» [سورة ص۳۸: ۳۲]، فقال قوم هو المال مستدلین بقوله تعالی «إن ترک خیرا» أی مالا وقوله «إنه لحب الخیر لشدید» وقیل هو مجاز والمراد به الخیل التی شغلته وأنسته ذکر ربه أو سمی الخیل خیرا کأنها نفس الخیر لتعلق الخبر بها قال رسول اللّه (ص): «الخیل معقود بنواصیها الخیر إلی یوم القیامة» وقال أیضا فی زید الخیل حین وفد علیه وأسلم: «ما وصف لی رجل فرأیته إلا کان دون ما بلغنی إلا زید الخیل وسماه زید الخیر» (المصدر نفسه، ج ۸/ ص۳٦۵)

وفی قوله تعالی: «أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ» [سورة ص۳۸: ٤۵] إذا کانت جمعا لید بمعنی النعمة فهی مجاز مرسل علاقته السببیة؛ لأن الید هی سبب النعمة وإنما حذفت الیاء فی خط المصحف اجتزاء عنها بالکسرة وفسر بعضهم الأید بمعنی القوة وهی وإن کانت جائزة من حیث اللغة إلا أن المقام یضعف استعمالها بهذا المعنی، قال الزمخشری «وتفسیره بالأید من التأیید قلق غیر ممکن.» (الزمخشری، ۱۹۹۵م: ص۲٦۷)

وفی الآیة العشرین: «وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ» من هذه السورة أشار الله إلی وهبه داود(ع) نعمة فصل الخطاب. و(الفصل): التمییز بین الشیئین وقیل للکلام المبین فصل بمعنی المفعول وأصله: انهم یقولون کلام ملتبس، وفی کلامه لبس والملتبس المختلط الذی لا یبین لتداخله أو معاظلته فقیل فی نقیضه کلام فصل أی مفصول بعضه عن بعض. ویجوز أن یکون الفصل بمعنی الفاعل أی الفاصل بین الحق والباطل وبین الصحیح والفاسد وبین السمین والغث. وهنا المجاز العقلی، علاقته المفعولیة أو الفاعلیة (الدرویش، ۱۹۹۹م: ج ۸/ ص۳٤٤).

Archive of SID

www.SID.ir

وفی قصة أیوب(ع) إنما أسند أیوب ما مسّه من نصب وعذاب الی الشیطان مع انه من البداءة الأولیة أن الشیطان لا یسلط علی الأنبیاء تأدبا مع اللّه لأن الشیطان کان یوسوس الیه ویغریه علی الکراهة والجزع وهذا علی سبیل المجاز.

٤.٤.٣ الکنایة

الکنایة فی الاصطلاح هی:«کلّ لفظة دلّت علی معنی یجوز حمله علی جانبی الحقیقة والمجاز، بوصف جامع بین الحقیقة والمجاز» (ابن الأثیر، ۱۹۹۸م: ج۲/ ص ۱۷۲) ومرجع الکنایة إلی المعنی لا إلی اللفظ. والکنایة من وسائل تصویر المعنی وهی أبلغ من التصریح فی الدلالة علیه، فإنّک «إذا کنّیت عن کثرة القِری بکثرة رماد القدر، کنت قد أثبت کثرة القری بإثبات شاهدها ودلیلها ... وذلک لأنّه یکون سبیلها حینئذ سبیل الدعوی تکون مع شاهد» (الجرجانی، ۱۹۸۸م: ص۳٤۰).

ورد التعبیر بالکنایة فی قوله تعالی: «إِنَّ هَذَا أَخِی لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِیَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِیهَا وَعَزَّنِی فِی الْخِطَابِ» [سورة ص۳۸: ۲۳] کنایة عن المرأة فقد کانوا یکنون عن المرأة بالنعجة والشاة فی نحو قول عنترة:

یا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت علی ولیتها لم تحرم

وإنما ذکر امرأة أبیه وکان یهواها وقیل بل کانت جاریته فلذلک حرمها علی نفسه وهذه الکنایة تتمشی مع القول بأن القصة جاریة مجری التمثیل.

قال الزمخشری: «والذی یدل علیه المثل الذی ضربه اللّه أن قصته لیست إلا طلبه الی زوج المرأة أن ینزل له عنها فقط ثم نبه الزمخشری علی مجیء الإنکار علی طریقة التمثیل والتعریض دون التصریح وذلک أن التعریض داع الی التأمل والتنبیه الی وجه الخطأ مع ما فیه من اجتناب المجاهرة فی الإنکار والتوبیخ وألقاه بطریق التمثیل لیستقبح ذلک من غیره فیجعله مقیاسا لاستقباح ذلک من نفسه مع البقاء علی الحشمة کما أوصی بذلک فی سیاسة الوالد لولده إذا حصلت منه هنة منکرة قال: وجاء ذلک علی وجه التحاکم لیحکم بقوله لقد ظلمک فتقوم الحجة علیه محکمة» (الزمخشری، ۱۹۹۵م: ص۲۷۰).

وقال: وقوله «وَهَلْ أَتَاکَ» [سورة ص۳۸: ۲۱] جاء علی وجه الاستفهام تنبیها علی أن هذه القصة قصة عجیبة من حقها أن تشیع ولا تخفی علی أحد وتشویقا الی سماعها أیضا. (المصدر نفسه)

فی الخطاب یحتمل أن یکون من المخاطبة ومعناه أتانی بما لم أقدر علی ردّه من الجدال ویحتمل أن یکون من الخطبة مفاعلة أی خطبت فخطب علی خطبتی فغلبنی والمفاعلة لأن الخطبة صدرت عنهما جمیعا. (الدرویش، ۱۹۹۹م: ج ۸/ ص۳۵۱)

Archive of SID

www.SID.ir

وقال فى ذكر النعاج إنها تمثيل فكان تحاكمهم تمثيلا وكلامهم أيضا تمثيلا لأنه أبلغ لما تقدم وللتنبيه على أن هذا أمر يستحيا من التصريح وأنه مما يكنى عنه لسماجة الإفصاح به وللستر على داود عليه السلام ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا برجل له نعجة ولخليطه تسع وتسعون فأراد أن يتمها مائة بالنعجة المذكورة فإن قلت طريقة التمثيل إنما تستعمل على جعل الخطاب من الخطابة فإن كان من الخطبة فما وجهه؟ قال الوجه حينئذ أن تجعل النعجة استعارة للمرأة كما استعاروا لها الشاة فى قوله: يا شاة ما قنص لمن حلت له ...

قال : والفرق بين التمثيل والاستعارة انه على التمثيل يكون الذى سبق الى فهم داود عليه السلام أن التحاكم على ظاهره وهو التخاصم فى النعاج التى هى البهائم ثم انتقل بواسطة التنبيه الى فهم أنه تمثيل لحاله وعلى الاستعارة يكون فهم عنهما التحاكم فى النساء المعبر عنهن بالنعاج كناية ثم استشعر أنه المراد بذلك. (الزمخشرى، ١٩٩٥م: ص٢٧٨)

الكناية فى قوله: «أولى الأيد والأبصار» [سورة ص ٣٨: ٤٥] وهى كناية عن العمل الصالح قال الزمخشرى «أولى الأعمال والفكر كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون فى اللّه ولا يفكرون أفكار ذوى الديانات ولا يستبصرون فى حكم الزمنى الذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم والمسلوبى العقول الذين لا استبصار بهم» (المصدر نفسه)

وفيه أيضا فن التعريض بأن من لم يكن من عمال اللّه ولا من المستبصرين فى دين اللّه خليق بالتوبيخ وأسوأ المذام (الدرويش، ١٩٩٩م: ج ٨/ ص٣٧١)

٥.٤.٣ التصوير المعتمد على الواقعية

لا يقلّ التصوير المعتمد على الواقعية أهمية عن التصوير البلاغى، وهو يتكامل معه ليوسعا معاً من دائرة التصوير الفنى.

لنتأمل هذا المشهد الخاطف: «وَمَا يَنظُرُ هَـٰؤُلَاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاق» [سورة ص٣٨: ١٥]، حيث جاء التعبير عن يوم القيامة مختصراً وسريعاً وخاطفاً، حتى ليخيل للسامع أنّ هذا اليوم قد وقع وانتهى الأمر.

وإذا يقول تعالى: «كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاص» [سورة ص٣٨: ٣] ويصور للسامع ما وقع على الأقوام السابقة الذين هلكوا وعند هلاكهم كانوا ينادون ويستغيثون ولكن لم يكن لهم ملجأ ومفرّ. وبطريقة التصوير المعهودة راح يعرض على السامع مشاهد محسوسة أو معروفة للأقوام الهالكين قبلهم، أين غدوا؟ وكيف انتهوا؟

أو عندما يريد الله أن يصور لنا حال المتقين فى الجنة والطاغين فى النار يقابل بين الصورتين ويبين

Archive of SID

www.SID.ir

أنّ المتقین فی جنات یتکئون ولهم فواکه وشراب وقاصرات الطرف ولهم فیها کلّ اللذات. وأما الطاغون فیسوقونهم إلی النار ویذیقونهم الحمیم والغسّاق ولبئس المهاد والقرار: [سورة ص۳۸: ۵۰ـ ۶۰]

۶.۴.۳ الإطار القصصی

امتدّت السورة وتحولت إلی مجموعة متجاورة من المشاهد حدد علی مستوی الأسلوب الإطار القصصی وعلی مستوی المضمون موضوع لطف الله ورحمته بکلّ الأنبیاء فبل الرسول(ص) وعلی النبی محمد(ص) أن یتأسّی بهذه القصص وبذکرها ویصبر علی ما یقوله الکافرون والمشککون.

أول قصة فی السورة هی قصة داود(ع) مع الذین دخلا علیه وأرادا منه أن یحکم بینهما. والإشارة إلی أنّ الله تعالی جعل داود خلیفته فی الأرض وأمره بالحکم بین الناس بالحقّ وألا یتبع هواه وفی هذه القصة درس کبیر للرسول(ص) [سورة ص۳۸: ۱۷ ـ ۲۶].

بعد قصة داود إشارة خاطفة إلی قصة سلیمان(ع) والنعم التی وهبها إیاه، من سلطته علی الریح، والشیاطین و ... [سورة ص ۳۸: ۳۱ ـ ۴۰] وبعد ذلک یشیر إلی قصة أیوب(ع) الذی نادی ربّه ودعاه والله وهبه أهله رحمة منه. [سورة ص۳۸: ۴۱ ـ ۴۴] وقصة أیوب حافلة بالصور الشعریة الملهمة وهی دیوان حافل عن الصبر علی البلاء وعدم البطر فی الرخاء. وقصة صبر أیوب تدخل فی حیز أغراض القصص فی القرآن، وأسمی أغراضها إنشاء العقیدة الدینیة الخاصة المجردة وموطن هذه العقیدة الخالدة هو الضمیر والوجدان فلم یکن الداعی الی الاستمساک بالصبر والاعتصام به مجردا لقداسته الدینیة ولکن اتساع الآفاق النفسیة وانفتاح منافذ المعرفة أمام النفس.

ونلاحظ أنّ أیوب قد تلطف فی السؤال وألمح الی ما یعانیه من بلاء دون أن یصرح بمطلوبه حیث اکتفی بذکر المس فی الضر وأدخل أل الجنسیة علی الضر لتشمل أنواعه المتقدمة ووصف ربه بغایة الرحمة بعد ما ذکر نفسه بما یوجبها فکان درسا بلیغا لکل من تتعاوره الأرزاء وتنتابه اللأواء.

وفی السورة إشارة إلی قصة خلق آدم(ع) واستکبار إبلیس أمام الله وعدم سجدته وخضوعه لآدم (ع) وإخراجه من الجنة وطلبه الإنظار من الله وقسم إبلیس أن یغوی الناس أجمعین إلا عباد الله المخلصین. [سورة ص۳۸: ۷۱ ـ ۸۳]

اشترکت غالبیة مشاهد السورة فی ظلال خاصة من الرحمة والنعمة، والحنان والودّ، والعطاء والبرکة وهذه المعانی صبغت السورة کلّها. فتُذکر نعمة الله لداود(ع) وسلیمان(ع) وأیوب(ع). والنعم التی یهبها المتقین فی الجنات من الفواکه والشراب و ... وعلی النقیض من ذلک، فی السورة أیضاً صورة للطاغین الذین یدعون إلی جهنم ویهیأ لهم شراب من حمیم وغساق. وکانت الخاتمة فی صورة إبلیس الذی أقسم أن یغوی الناس وأقسم الله أن یملأ جهنم منه ومن التابعین له.

Archive of SID

www.SID.ir

٧.٤.٣ أسلوب الحوار

الحوار، من أبرز الأساليب الحكمية والبليغة التى استعملها القرآن الكريم فى إقامة الأدلة على وحدانية الله وعلى صدق الرسل الكرام.

يتبين فى السورة الحوار الذى يدور بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة، وما قال أهل النار للذين اتبعوهم فى الدنيا وما دار بينهم حول أهل الإيمان الذين كانوا هم يسخرون منهم فى الدنيا ويحسبونهم أهل النار والآن فى النار لا يرونهم. [سورة ص٣٨: ٦٠ ـ ٦٣]

وفى السورة حوار جرى بين الله تعالى وإبليس عندما خلق الله سبحانه آدم وأمر الملائكة أن يسجدوا له واستكبر إبليس قال تعالى له: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ» [سورة ص٣٨: ٧٥] وأجاب إبليس: «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّار وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» [سورة ص٣٨: ٧٦] وقال تعالى: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ» [سورة ص٣٨: ٧٧ ـ ٧٨] وهنا أراد إبليس من الله أن يمهله إلى يوم القيامة والله تعالى أنظره وقال إبليس مقسماً بعزة الله تعالى أنه سيغوى الخلق أجمعين إلا عباد الله المخلصين والله سبحانه يقسم أن يملأ جهنم منه ومن تابعيه: [سورة ص٣٨: ٧٩ ـ ٨٥]

وفى هذه الحوارات فى السورة دروس كبيرة لمن يتأمّل فيها، منها: أنّ المعبودين يتبرأون من عابديهم ويتبرأ العابدون من معبوديهم يوم القيامة ويشترك الأتباع مع المتبوعين فى العذاب، حيث يوقفون للحساب معهم ويشعرون بالحسرة والندامة والذل معهم ويدخلون جهنم معهم، ويتقلّبون فى نارها وعذابها معهم، ويتحمّلون المسؤولية معهم. وأن الاستكبار أمام الله تعالى وعدم إطاعة أوامره سبحانه يؤدى إلى غضب الله على المستكبر والدخول إلى جهنم.

النتيجة

دراسة السور القرآنية فى ميزان علم الأسلوبية الحديثة تكشف لنا أبعاد القرآن الجمالية أكثر فأكثر، فظهر لنا فى هذا البحث الأسلوبى فى سورة (ص) بعضَ الأسرار الخفية فيها. وتمّ البحث فى المستويات الأسلوبية المختلفة للسورة كالمستوى الصوتى، والدلالى،والتركيبى، ومستوى الصورة. من أهم ما حصل فى البحث هذا هو:

ـ الدراسة الصوتية للسورة دلّتنا على وجود توازن مقصود فى إيقاعها.

ـ إنّ ألفاظ السورة تميزت بالدقة فى الاختيار وبسعة الدلالات وتنوعها وبإثارة الخيال وبقوة التأثير فى المتلقين.

Archive of SID

www.SID.ir

ـ إنّ معظم أشكال التضاد فی السورة انبثقت من العلاقة بين الإسلام والكفر، وبرز دور التضاد الفاعل فی إنشاء مقارنة بين نقيضين بهدف التبيين والوعظ وفی نقض أوهام الكافرين.

ـ برز التكرار فی السورة وقد ساهم فی تأدية المعانی كإشاعة ظلال الرحمة والعطاء فی جو السورة وتقوية المعنی وتوكيده والتأكيد على بعض العقائد الإسلامية.

ـ إنّ القرآن اختار التعبير بالصورة عن المعانی التی يراد إثباتها فی ذهن المتلقی فنقل له الأفكار والمعانی بصورة حسية وقد تضافر التصوير المعتمد على الواقعية والتصوير البلاغی المعتمد على التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكناية، فی تشكيل الصور الفنية فی السورة.

الهامش

۱. الرقم هذا رقم الآية فی السورة.

المصادر

القرآن الكريم.

ابن الأثير، ضياءالدين (۱۹۹۸م). *المثل السائر فی أدب الكاتب والشاعر*. حققه: محمد عويضة، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن جنّی، أبوالفتح عثمان (۱۹٦۹م). *المحتسب*، تح: علی النجدی الناصف وعبد الفتاح شلبی، القاهرة: المجلس الأعلی للشؤون الإسلامية.

أبوديب، كمال (۱۹۸٤م). «*الأسلوبية*»، مجلة *فصول*، المجلد ٦.

أبوزهرة، محمد (۱۹۷۰م). *المعجزة الكبری القرآن*، القاهرة: دار الفكر العربی.

أبوعلی، محمد بركات حمدی (۱۹۸٤م). *فی الأدب والبيان*، عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع.

أنيس، إبراهيم (۱۹۷۲م). *موسيقی الشعر*، ط٤، بيروت: دار القلم.

أولمان، ستيفن (بلاتا). *دور الكلمة فی اللغة*، ترجمة: كمال بشر، ط۱۲، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.

الباقلانی، أبوبكر محمد بن الطيب (د.ت). *إعجاز القرآن*، حققه: السيد أحمد صقر، ط۳، مصر: دار المعارف.

البطل، علی (۱۹۸۳م). *الصورة فی الشعر العربی حتی آخر القرن الثانی الهجری، دراسة فی أصولها وتطورها*، ط۳، بيروت: دار الأندلس.

الدرويش، محيی‌الدين (۱۹۹۹م). *إعراب القرآن الكريم وبيانه*، ط٦، بيروت ـ دمشق: دار الميامة ـ دار ابن كثير.

الرافعی، مصطفی صادق (۱۹۹۷م). *إعجاز القرآن والبلاغة والنبوية*، القاهرة: دار المنار.

الزمخشری. محمود بن عمر بن محمد (۱۹۹۵م). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فی وجوه التأويل*، صححه: محمد عبد السلام شاهی، بيروت: دار الكتب العلمية.

الجرجانی. عبدالقاهر (۱۹۸۸م). *دلائل الإعجاز فی علم المعانی*. صححه الإمام محمد عبده، ط٤، بيروت: دار الكتب العلمية.

Archive of SID

www.SID.ir

الجرجانی. عبدالقاهر (بلاتا). *أسرار البلاغة فی علم البیان*، شرحه: السید محمدرشید رضا، بیروت: دار المعرفة.
حسان، تمام (١٩٩٣م). *البیان فی روائع القرآن*، القاهرة: عالم الکتب.
حسان، تمام (١٩٧٩م). *اللغة العربیة معناها ومبناها*، ط٢، القاهرة: الهیئة المصریة العامة للکتاب.
الخالدی، صلاح عبد الفتاح (١٩٩٢م). *لطائف قرآنیة*، دمشق: دار القلم.
الراغب الأصفهانی، الحسین بن محمد بن المفضل (١٩٩٧م). *معجم مفردات ألفاظ القرآن*، بیروت: دار الکتب العلمیة.
السیوطی، جلال‌الدین (بلاتا). *الإتقان فی علوم القرآن*، تحقیق: محمد أبوالفضل إبراهیم، ط٣، القاهرة: دار التراث.
شاهین، عبد الصبور (١٩٨٠م). *المنهج الصوتی للبنیة العربیة، رؤیة جدیدة فی الصرف العربی*، بیروت: مؤسسة الرسالة.
الصغیر، محمد حسین علی (١٩٨١م). *الصورة الفنیة فی المثل القرآنی، دراسة تقدیة وبلاغیة*، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام.
طحان، ریمون (١٩٨١م). *الألسنیة العربیة*، ط٢، بیروت: دار الکتاب العربی.
عبد المطلب، محمد (١٩٩٤م). *البلاغة و الأسلوبیة*، ط٢، بیروت: مکتبة لبنان ناشرون.
عمر، أحمد مختار (١٩٧٦م). *دراسة الصوت اللغوی*، القاهرة: عالم الکتب.
عودة، خلیل (١٩٩٤م). المنهج الأسلوبی فی دراسة النصّ الأدبی، *مجلة النجاح للأبحاث*، المجلد٢، العدد٨.
فضل، صلاح (١٩٩٢م). *علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته*، القاهرة: مؤسسة مختار للنشر والتوزیع.
قطب، سید (١٩٨٣م). *التصویر الفنی فی القرآن*، ط٨، القاهرة: دار الشروق.
کشک، أحمد (١٩٨٣م). *من وظائف الصوت اللغوی محاولة لفهم صرفی ونحوی ودلالی*، دار السلام: مطبعة المدینة.
مصلوح، سعد (١٩٨٤م). «الأسلوبیة ـ ضمن مهرجان شوقی وحافظ الذی أقیم بالقاهرة سنة ١٩٨٢م»، مجلة *فصول*. المجلد ٥.
هلال، عبد الغفار حامد (١٩٩٦م). *أصوات اللغة العربیة*، ط٣، القاهرة: مکتبة وهبة.

Archive of SID
www.SID.ir